وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة قسم التاريخ

دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

المحاضرة الأولى: واقع العالم العربي عشية النهضة.

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

تمهيد/

العالم العربي من القرون الوسطى إلى عصر النهضة:

في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، دخلت البلاد العربية تحت المظلة العثمانية ، وظلت طوال القرون الثلاثة الأولى من حكم الأتراك في عزلة تامة عن العالم الخارجي، وبينما شهدت أوربا نهضة علمية وأدبية رافقتها اكتشافات جغرافية وحركة استعمارية ضمنت لها السيطرة على العالم الجديد وعلى العديد من أقطار العالم القديم في إفريقيا وآسيا، واجتاحتها في القرن الثامن عشر ثورة صناعية وأخرى سياسية واجتماعية قلبت أوضاعها رأسا على عقب وأعطتها مركز القيادة للعالم بأسره، كان العرب منغلقين على أنفسهم فلا اختراع ولا تقدم في العلوم والصناعة، بل جمود فكري وترديد لما ورد في الكتب الفقهية والنحوية والصرفية وبعض الحساب البسيط والفلك لمعرفة أوقات الصلاة، ورافق ذلك تراجع القوة العثمانية وانحسارها وفقدانها مجالات جغرافية لصالح الأوربيين، وانتشار الاستبداد ، وصارت بلاد الشام ومصر شبه مستقلتين تحت حكم الأمراء المحليين والمماليك، وظهر جليا العجز العسكري للجيش العثماني.

ووسط هذه الأوضاع كانت المظاهر المرتبطة بالحياة الدينية في جانبها الشكلي المنحرف هي المسيطر على حياة الناس الفكرية، وتصدر المشهد علماء

الدين كطبقة فكرية وحيدة في الأمة وشاركهم النفوذ رجال الطرق الصوفية التي ذاع صيتها وانتشرت في كل البقاع.

ويمكننا أن نسقط الوصف الذي عرضه عبد الكريم الفكون عن الحالة في قسنطينة والشرق الجزائري عموما والمتضمن في كتابه " منشور الهداية " الصادر عام 1636م على كامل البلاد العربية في القرنين المواليين فقد كتب الآتي: " أما بعد، فلما رأيت الزمان بأهله قد تعثر، وسفائن النجاة من أمواج البدع تتكسر، وسحائب الجهل قد أظلت، وأسواق العلم قد كسدت، فصار الجاهل رئيسا، والعالم في منزلة يدعى من أجلها خسيسا ".

ويصف أحمد أمين الوضع العام ببلاد العرب والمسلمين في نهاية القرن الثامن عشر بأنها كانت تعيش ظلمة حالكة ومحنة شاملة وجهل مطبق وظلم فادح وفقر مدقع، وأورد انطباعات أحد السياح الفرنسيين ويسمى الكونت دي فولنيي comte de Volney الذي زار مصر وبلاد الشام وأقام هناك لمدة أربع سنوات في نهاية القرن الثامن عشر حيث سجل الصورة الآتية: " إن الجهل في هذه البلاد عام شامل، مثلها في ذلك مثل سائر البلاد التركية، يشمل الجهل كل طبقاتها، ويتجلى في كل جوانبها الثقافية، من أدب وعلم وفن ".

وعلى الجملة، فقد كان العالم الإسلامي وقتئذ شيخا هرما حطمته الحوادث، وأنهكه ما أصابه من كوارث، فساد نظام واستبداد حكام، وفوضى أحكام، وخمود عام، واستسلام للقضاء والقدر، وترديد لقول الشاعر:

دع المقادير تجري في أعنتها ... ولا تبيتنّ إلا خالي البال.

لم يكن اتصال العرب بالفكر الغربي في القرن التاسع عشر أول اتصال لهم بهذا الفكر فقد سبق أن تعرفوا على منابع الفكر الغربي في القرون الأربعة الأولى للهجرة من خلال ترجمة الآثار اليونانية في العلم والأدب والفلسفة، وأحرزوا تقدما عظيما في ميادين الفكر المختلفة منحهم قصب السبق والتفوق على العالم بأسره، وانقطعت هذه الصلة تسعة قرون، لأسباب سياسية واقتصادية ودينية، ثم عادت من جديد تحت ظل الابتزاز الدولي والتدخل السياسي والاحتلال العسكري في عصر التوسع الأوربي.

وكان الغرب هذه المرة قد تجاوز العرب في مختلف مناحي الفكر واتجاهاته، بينما انغلق العرب على أنفسهم واقتصر نشاطهم الفكري على اجترار التراث التليد والتقيد بالحرف والكلمة، فلما اطلعوا لأول مرة على منجزات الغرب وقفوا منها موقف المذهول العاجز، ثم اقبلوا عليها يحاولون فهمها واستيعابها ، ولم يتردد فريق منهم في تبني كل ما في الفكر الغربي من منجزات علمية ونظريات فلسفية ومذاهب أدبية وفنية ، بينما وقف فريق آخر موقف الحذر المتردد محاولا التوفيق بين تلك العلوم والنظريات والمذاهب ، وبين تراث العرب الفكري وخاصة ما اتصل منه بالعقائد الدينية، وأنكر فريق ثالث تلك المنجزات ولم ير فيها شيئا جديدا يستحق العناية والاهتمام، فوقف منها موقف الرافض المستنكر.

يرى المفكر علي أومليل في تعاطيه مع مسألة الإصلاح والحركات الإصلاحية بالعالم العربي الإسلامي، أن الإصلاح القديم كان الدافع إليه الاقتناع بقيام خلل بين الإسلام الاجتماعي والإسلام المعياري فوجب إصلاح الخلل برد المسلمين إلى الإسلام فالخلل متصور أنه داخلي والإصلاح ذاتي، في حين أن الإصلاح الحديث انطلاقا من القرن الثامن عشر الميلادي ينطلق هو أيضا من وعي بخلل ولكنه مزدوج، فهو من ناحية يعود إلى الفارق بين المجتمع المسلم والإسلام ومن جانب آخر انقلاب العلاقة بين المسلمين وأوربا من التفوق إلى الانحطاط.